
ISSN: 2523 – 1871

ثقوب الذاكرة" في التاريخ الأفريقي

السنوسية في تشاد دراسة في حالة ودَاي

تأليف:أ.د. جان لويس تريو ترجمة: د. أحمد مراجع نجم•

المستخلص

يعالج هذا المقال أحد أهم الجوانب التاريخية في العلاقات الفرنسية السنوسية، المتعلقة باستخدام الإعلام والمعلومات التاريخية؛ لغرض تشويه الخصوم والأعداء، وهي أداة استخدمها بعض الكتّاب الفرنسيين؛ لتشويه صورة الحركة السنوسية، التي صُدمت بها فرنسا في جنوب الصحراء. في الواقع أنّ هذا المقال هو عرض نقدي للمصادر الفرنسية عن العلاقة التشادية السنوسية، ولفهم الأجندة الفرنسية السوداء، وتأثيرها وتفسيرها باستمرار للأنشطة السنوسية جنوب الصحراء الكبرى من حيث إنها مؤامرة وتخريب، وأنّ إخوان السنوسية هم مثال للمسلم الشرير والمؤذي. وبظهور مصادر جديدة متمثلة في كتاب المترجم: "دجيان Djian" احتلال تشاد Le tchad et saconquete 1900–1914 " استطاع الكاتب الفذ الدكتور جان لويس تريو Jean Louis TRIAUD استخدام هذه المعلومات، ونقد المصادر الفرنسية الكلاسيكية عبر دراسة العلاقات السنوسية الودانية، وكيف صورت المصادر الفرنسية هذه العلاقات من حيث شيطنة السنوسية، وتضخيم نشاط الحركة جنوب الصحراء، وذلك عبر مقارنة ما جاء في هذه المصادر مع أرشيف الحركة السنوسية، الذي تم العثور عليه في بعض الزوايا خاصة زاوية قرو، وكتاب دجيان، أما كاتب هذا المقال فهو شخصية علمية معروفة في الأوساط الفرنسية، ومتخصصة في الحركات الإسلامية جنوب الصحراء، خاصة الحركة السنوسية، التي خصها بأطروحته في الدكتوراه، الموسومة بـــ"العلاقات الفرنسية السنوسية" أو في كتابه الذي نشر فيما بعد "الأسطورة السوداء للحركة السنوسية 1840–1930".

• عضو هيأة التدريس بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة بنغازي.

في واقع الأمر قدم الأستاذ الدكتور تريو خدمة كبيرة لتاريخ الحركة السنوسية، وأنقذها من الاندثار والضياع، في وقت جفت فيه أقلام الليبيين عن الكتابة عن هذه الحركة بسبب سطوة نظام القذافي، وخصومته للحركة. ويأتي هذا المقال تتمة لدراسات السيد تريو عن الحركة السنوسية، وإن ركز على نقده للمصادر الفرنسية. وقد انتقيت هذه الدراسة لما لها من أهمية كبرى في تعريف القارئ العربي والليبي خاصة بالمصادر الفرنسية عن الحركة السنوسية، ليس هذا فقط، بل نقداً وتمحيصاً لها على يد أحد كبار المتخصصين في تاريخ الحركة السنوسية. وأترك للقارئ الحكم على القيمة العلمية لهذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الحركة السنوسية – مملكة وداي

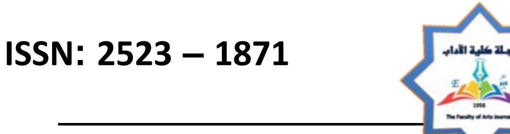
المقدمة

هُزمت الحركة السنوسية خلال القرن العشرين من قبل ثلاث قوى استعمارية، بعد فترة طويلة من المقاومة النشطة، هي في الواقع ضحية "الأسطورة السوداء" الفرنسية، التي صورتها على أنها حاقدة، وأن إخوان السنوسية مثال للمسلم الشرير والمؤذي، سوف تتعرض السنوسية لخطر دبلوماسية القوى العظمى في الحرب العالمية الأولى، وحرمانها من الشرعية والحكم والتاريخ من قبل العقيد القذافي في سنة 1969م.

كانت الحركة السنوسية عاملا فعالاً ورئيسياً في تاريخ شمال أفريقيا الحديث والمعاصر، سواء من حيث الجغرافيا أو مدى نفوذها ووجودها على الساحة التاريخية (1840–1969).

الحالة قيد الدراسة هنا هي مملكة ودَاي في القرن التاسع عشر، دراسة في التشكيل السياسي في منطقة تشاد منذ سنة 1860، ودَاي هي الشريك السياسي الدبلوماسي والتجاري المتميز لإخوان السنوسية في حماية المحور التجاري الجديد (بنغازي الكفرة أبشة).

هذا المقال هو استعراض نقدي للمصادر المتوفرة عن العلاقة التشادية السنوسية، ولفهم الأجندة السوداء الفرنسية، وتأثيرها وتفسيرها باستمرار للأنشطة السنوسية جنوب الصحراء الكبرى، من حيث إنّها مؤامرة وتخريب.


ISSN: 2523 – 1871

وبظهور مصادر فرنسية جديدة ظلت لفترة طويلة لا يمكن الوصول إليها، المتمثلة في المترجم "دجيان" سيسمح بإعادة قراءة جديدة، وتقديم رؤية أكثر توازناً لدور السنوسية جنوب الصحراء، وهو على ما يبدو أنها تعمل أكثر على نموذج الشريفية والوسيط بين القوى المحلية، بدلاً من أن تسعى للتحدي أو تسعى للسلطة نفسها.

إن بعض الأحداث في ذاكرة التاريخ الأفريقي حظيت باهتمام (كافٍ و مفرط) وهذا لا يعني أن دراستها الآن زائدة عن الحاجة، ومن الأمثلة على ذلك دور الإمبراطوريات السودانية في العصور الوسطى، حيث فيها كثير من أبطال المقاومة في القارة لأفريقية أو دراسة الجهاد الإسلامي. ومع ذلك هناك أماكن أخرى من الذاكرة الأفريقية ظلت مجمدة على حالها في بعض الدول؛ وذلك لندرة المطبوعات والمصادر.

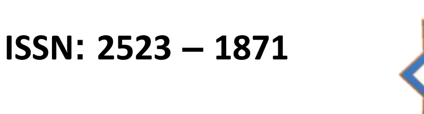
تاريخ الحركة السنوسية ظل منذ فترة طويلة أحد هذه "الثقوب السوداء" في التاريخ الأفريقي، وهذا بالتأكيد مصير المنهزمين، ذلك أن تاريخهم يمكن نسيانه، والتأكيد الثاني أن الحركة السنوسية انهزمت بعد قتال عنيف، على عدة جبهات ضد الفرنسين والإيطاليين والإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى، في ميدان واسع وفي وقت واحد، يمتد من النيجر والهجار[1] ووادي النيل؛ أطول من معارك الأمير عبد القادر، وعبد الكريم الخطابي، وساموري[2]، وعلى ساحة أكثر بكثير من المعارك التي نفذت قبلهم وضد عدد أكثر.

ولكن هذه الأمثلة تظهر العكس، حيث إنّ الهزيمة ليست دائماً عاملا من عوامل النسيان، كما أن الظروف الصعبة لعبت هي الأخرى دوراً كبيراً هنا.

الأول هو التحيز الدائم من قبل الاستعمار الفرنسي، الذي يريد أن يرى في النظام السنوسي محور الشر المؤذي للجميع، والذي يثير المؤامرات في الصحراء، ونموذجاً من النماذج المعادية للغرب والمسيحية، هذا الوصف السلبي للحركة السنوسية المستمر إلى اليوم من قبل سلسلة طويلة

1الهقار أوالأهقار هي سلسلة جبيلة شهيرة تقع في أقصى الجنوب الشرقي للجزائر بولاية تمنراست وهي تغطي مساحة 450.000 كم2 أي ربع المساحة الإجمالية للجزائر، https://ar.wikipedia.org/wiki، المترجم.

2ساموري توري زعيم أفريقي ولد في المنطقة التي تعرف في الوقت الحاضر بجمهورية غنيا – مات في 2 يونيو 1900.


ISSN: 2523 – 1871

من المصنفات (المصادر والمراجع) التي نقلت وساهمت إلى حد كبير في حرمان التاريخ من هذه الحركة.

وثمة عامل آخر قد حان دمج آثاره مع الآثار السابقة، في الوقت الذي كان فيه إنهاء الاستعمار في أفريقيا قد جلب إلى السنوسية صعود الذكريات المجيدة، فإن رفض البلد المؤسس (ليبيا) العقيد القذافي، حرم الحركة السنوسية إحياء ذكرى الكفاح في أفريقيا، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما حاول محو السنوسية من الذاكرة الرسمية، والتاريخ الرسمي للبلد.

نعتقد أن الكتاب الوحيد الذي تحدث بطريقة جيدة ومناسبة عن الحركة السنوسية إيفانز بريتشارد[1] الوحيد من حيث المحتوى وطريقة العرض، ولكنه لا يكفي لتمهيد الطريق أمام التاريخ الحديث بشكل أفضل عن الزوايا السنوسية[2].

من دون أدنى شك، أن تشاد أكثر الأجزاء الأفريقية التي تشكل فيها الحركة السنوسية والزوايا جزء من ذاكرة البلاد، التي تعرضت باستمرار للطمس. ففي كتاب فيراندي (أفريقيا الوسطى الفرنسية سنة 1930)[3] تحدث فيه عن مرور السنوسية واستقرارها في شمال تشاد، ثم القضاء عليها من قبل القوات الفرنسية.

هكذا أصبحت قضية الحركة السنوسية مغلقة أو ممنوعة في الآونة الأخيرة (في ليبيا بسبب القذافي – وفي فرنسا الحكم عليها بشكل مغاير للحقيقة) ولم تفتح هذه القضية من جديد.

1E. E. Evans-Pritchard, The Sanusi of Cyrenaica, Oxford, Clarendon Press, 1949, 240 p., rééd. 1954.

كان إيفانز ريتشارد في مخابرات الجيش البريطاني في مصر، وعلى اتصال مع الحركة السنوسية.

2 ومع ذلك هناك مراجع أخرى ذات قيمة علمية مثل:

Nicola A. Ziadeh, Sanûsiyah : a study of a revivalist movementin Islam, Leiden, Brill, 1958, 148 p. بالإضافة الي

أطروحة الدكتوراه : الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، تأليف: أحمد صدقي الدجاني. الطبعة: الأولى. 1967م

3Jean Ferrandi (Lieutenant-colonel), Le Centre africain français. Tchad, Borkou, Ennedi. LeurConquête, Paris, Charles Lavauzelle, 1930, 252 p

فالصورة التي قدمها فيراندي عن إخوان السنوسية هي صورة سلبية عموماً، وتتفق مع المصالح الفرنسية، الحريصة على الشريط الشمالي من تشاد، والابتعاد عن أي مطالب إيطالية في شمال تشاد، ومنذ ذلك الحين –مع استثناءات قليلة– والصمت الكبير هو السائد.

وعند مقارنة هذه المعاملة مع تلك الممنوحة لتاريخ رابح، بالطبع هناك جهات خارجية أخرى من أصحاب المصلحة في المشهد التشادي، فإن الشذوذ في مثل هذه الحالة يكون أفضل قياس.

لم يمض على دولة رابح أكثر من عشرين عاما في الفضاء التشادي الحالي[1]، وظهرت قوته كمحارب مخلص، وفي ذات الوقت ترك ذكريات متناقضة أو متباينة، ومع ذلك كان بطريقة ما (تجنس) واستخدم لمختلف القراءات المناهضة للاستعمار في الماضي، وهو على أي حال جزء من تاريخ تشاد وبحيرتها[2].

إنّ وجود الحركة السنوسية في تشاد في ذلك الوقت يشكل الضعف في عدة مناطق من تشاد اليوم، وحيث خرجت السنوسية من تشاد بعد حرب لمدة اثني عشر عاما مع القوات الفرنسية، وعلى العكس من ذلك فقد صمت التاريخ عن هذا الوجود السنوسي، حتى يومنا هذا.

تحتفظ السنوسية بهامش بسيط في العمارة التشادية، وكأن الصورة السلبية والشيطانية التي حملها الاستعمار، كما لو كانت سابقة، تعتبر سابقة مؤسفة، خاصة فترة النضال المناهض

---

1 رابح جاء من السودان، وصل إلى دار كوتي حوالي 1879 واحتل كوكاوا، ثم العاصمة برنو في أواخر 1893، هزم رابح من قبل القوات الفرنسية بعد الهجوم عليه من قبل ثلاث محاور، فرقة قادمة من الجزائر وغرب أفريقيا وأفريقية الاستوائية في معركة كوسيري في 22 أبريل 1900. للمزيد من المعلومات انظر

: J.-C. Zeltner, Les pays du Tchad dans la tourmente, 1880–1903، Paris, L'Harmattan, 1988, p. 47 et 135).

2 قد وجدت شركة "إعادة التأهيل التاريخي" الحد الأقصى التعبير عنها في السنوات، 1970. ومن بين العناوين الرئيسية:

W. K. R. Hallam, The life and times ofRabihFadl Allah, IlfracombeStockwell, 1977, 367 p. (cf. la préface : « In spite of his brutality and ruthlessness, which hâve made hisname still to be hated and reviled wherever he passed, his achievements were nevertheless considérable، and his actions, ranged over a large part of Africa, make him a historically important figure ») ; JosephBartélémyElaudAmegboh, Rabah, Paris, ABC, 1976 ; Henri Moniot, « Rabih », in Les Africains, Paris, Éd. Jeune Afrique, t. IV, p. 287-309, ainsi qu'une maîtrise publiée : MaikoremaZakari, Rabih auBornou (1893-1900), une étape de la colonisation française, Niamey, IRSH, Documents des Études nigériennes, 1979.

للاستعمار، الذي يشمل الليبيين والتشاديين ضد الفرنسيين، الذين كانوا في طريقهم إلى تلبية مشروع البناء الوطني.

لهذا لم يكن للزوايا السنوسية مكان في التاريخ التشادي والذاكرة الرسمية للدولة، وإن تمت الإشارة إليها بشكل بسيط في بعض الأعمال العلمية.

ولكي نكون منصفين، يجب أن نضيف أن قادة السنوسية أنفسهم، من الإمام الثالث للحركة أحمد الشريف (1902–1918) الذي شكل خياره السياسي والعسكري العثماني، نقطة التحول الرئيسية في تاريخ السنوسية، حيث ساهم هذا التوجه في إهمال الحقبة التشادية، ومن الآن فصاعدا سيعطي اهتماما أكبر للصراعات الرهيبة التي سوف تشن في جميع أنحاء ليبيا خلال الفترة 1911–1931.

إن جهاد الحركة السنوسية والدفاع عن ليبيا خلال هذه الفترة هو أساس شرعية الدولة السنوسية، التي توجت بإعلان المملكة الليبية عام 1950 تحت التاج السنوسي.

ومع ذلك فإن السنوسية هي حركة مغربية متعددة الجنسيات[1]، وجهت مساراتها نحو وسط السودان، ولهذا نقلت مقرها الرئيسي إلى قرو على سفوح جبال تيبستي في عام 1899، وفيما بين عامي 1899–1913، أسست سبع زوايا في تشاد: قرو، ياردا، عين كلك، ون (في فايا)، أوجنفة الكبير، وأوجنفة الصغير، وبير العلالي. كما يجب إضافة الزوايا الأقدم في شامدور بالقرب من ديركو (في قعوار النيجر) وبالقرب من البدو في أندي. وبخصوص بركو فهي (حديقة) ومركز اجتماعي للزوايا السنوسية، التي هي في الأساس المؤسسة الدعوية للحركة السنوسية[2]

1 تأسست السنوسية في مكة المكرمة حوالي عام 1837، من قبل عالم صوفي جزائري يدعى محمّد بن على السنوسي، وأول زاوية أنشأت في أفريقيا هي الزاوية البيضاء، شرق بنغازي في نهاية عام 1842، وجاء أقرب معاونيه من جميع أنحاء شمال أفريقيا.

2 بخصوص هذه التجربة: جان لويس تريو، "تجربة التبشيرية. السنوسية في بوركو "فيجان بيير (محرر)، الإسلام في تشاد بوردو، جامعة بوردو، أفريقيا السوداء مركزالدراسات، 1990،ص. 31–44. سوف يفصل في الطبعة الثانية، منقحة بشكل مناسب، نشرت في عام 1993.



العلاقة بين السنوسية ومملكة ودَاي

منظور عالمي

على خلاف بركو مملكة ودَاي، لم تكن أرضا خصبة للدعوة السنوسية، ففي بركو كانت المؤسسات السياسية والدينية المحلية ضعيفة، ولذلك وجدت السنوسية فيها أرضاً خصبةً لنشر الدعوة، أمّا الاستقرار في ودَاي فكان على العكس تماماً، فقد كانت في أوج قوتها، وكانت تبسط نفوذها على ما يسمى بتشاد اليوم.

من المؤكد أن ودَاي تأسست في القرن الثامن عشر، كان حاكمها عبد الكريم سابون، صاحب السيادة والقوة (1805–1815) وفقا لبارذ Barth (1803–1813) وحسبرواية نختجل، شجعته الدول المجاورة (وخاصة باقرمي) على افتتاح خط تجاري مباشر بين بلاده وبنغازي عبر الكفرة؛ بسبب حالة انعدام الأمن السائدة على طول وادي النيل وعلى تيبستي وكوار.

كان التوازن السياسي في ودَاي يمر بمجموعة من الأزمات، وخاصة أزمة الخلافة، ولكن عرف في القرن التاسع عشر ملكان مهمّان وهما محمّد الشريف (1835–1858) وابنه علي (1858–1874) يمثلان تتويجاً لقدرة ودَاي السياسية والفكرية والتجارية مع شركائها الإقليميين من الصحراء إلى الساحل بين بحيرة تشاد ودارفور، وفي هذا السياق فإن العلاقة بين إمام الحركة السنوسية، وأبشة أخذت شكل علاقة الند بالند.

لم تسمح حكومة ودَاي في أي وقت للسنوسية من الانتشار في ودَاي، ومن جانبها (الحركة السنوسية) كانت حريصة على الحفاظ على دعم هذا الشريك السياسي والاقتصادي، و لهذا لم تفكر في نشر معتقداتها بالقوة.

إن التجارة الصحراوية كانت هي عماد العلاقات السنوسية الودانية، حيث نشأت هذه العلاقة وترعرعت على طريق الكفرة في منتصف القرن التاسع عشر، حيث حافظ الإخوان على السلامة



ISSN: 2523 – 1871

المرورية وتأمين الخط التجاري، الذي كان في السابق يفتقر إلى الأمن[(1)]، وفي المقابل فإن سلاطين ودَاي يدركون أن السنوسيين كانوا يمارسون سلطتهم المعنوية والأخلاقية على الطريق التجاري الرئيسي لها، إن لم يكن المنفذ الوحيد إلى البحر المتوسط والعالم العربي العثماني، ولذلك أظهروا احتراماً سخياً للإخوان في شكل هدايا دورية، التي وفرت للإخوان دخلاً لا يكاد يذكر، هذا هو المخطط التفسيري العام لهذه العلاقات.

لكن التاريخ الفرنسي، الذي اتسم بما أسماها الأسطورة السوداء لإخوان السنوسية، -أي إنتاج صورة سلبية فانتازية[(2)] إلى حد كبير، من الممكن إعادة بناء تكوين ونشأة هذه العلاقة من القنصليات الفرنسية في بنغازي وطرابلس في نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر -ربما أُسيء فهم الطبيعة الأساسية لهذه العلاقات وتوجهها، ومن ثم نقل التفسيرات التي لا تزال تؤثر على النقاش التاريخي[(3)]، وبالتالي فإن دراسة العلاقة بين السنوسية وودَاي يتطلب اليقظة، خاصة فيما يتعلق بالمصادر الفرنسية، والعمل على تحليل المعلومات، وفي نهاية المطاف نأخذ ما نحن متأكدين بالدليل من صحتها، ونمضي بطريقة متسلسلة زمنيا من خلال العرض، وفي العديد من الحالات مراجعة أو تحديث المعارف وهو أمر مفروغ منه.

---

1 بخصوص تاريخ طريق أبشة بنغازي انظر:

l'articlepionnier de Dennis D. Cordell, « Eastern Libya, Wadaiand the Sanûsiyya : a Tariqa and a Trade Route », Journal ofAfricanHistoty, XVIII, 1, 1977, p. 21-36. Le premier rapport circonstancié sur la création de la route Wara-Benghazi, vers 1810-1811, escelui rédigé par Fulgence Fresnel, saint-simonien, consul de France à Djeddah, à partir derecueillis en 1846 à Djalo auprès d'informateurs Zuya et Majabra : « Mémoire sur les caravanesafricaines qui parcourent l'espace compris entre l'oasis du Touat et les frontières occidentales de l'Egypte et du Dar-Four, ou Renseignements sur la partie du Désert située entre 0° et 25e de longitude orientale de Paris », Archives du ministère des Affaires étrangères, Paris, Correspondance politique des consulats [ciaprès AMAE, CPC], Tripoli de Barbarie, vol. 7, Fresnel à MAE, 1er septembre 1846. Ce mémoire est ensuite repris dans une version imprimée (Bulletin de la Société de géographie, Paris, 3e série, n° 1 1 , 1849, p. 48-67.(

2فانتازية تعني : وصف خيالي وعاطفي"المترجم"

3 لإجراء دراسة شاملة للعلاقات الفرنسية السنوسية، راجع : أطروحة الدكتوراه:

JeanLouisTriaud, « Les relations entre la France et la Sanûsiyya. Histoire d'une mythologie coloniale.Découverte d'une confrérie saharienne », thèse de doctorat d'État, Université de Paris VII, 1991, 4 t 1927،.Une publication imprimée de cet ouvrage vient de paraître : La légende noire de la Sanûsiyya.Une confrérie musulmane saharienne sous le regard français (1840-1930), Paris/ Aix-en-Provence،Maison des sciences de l' homme/Institut de recherches et d'études sur le monde arabe et musulman)IREMAM), 1995, 2 1.p



ISSN: 2523 – 1871

"أصل الأسطورة" ؟

إن الاتصالات الأولى بين السنوسية وسلطنة ودَاي يحيط بها بعض الغموض، ففي مقال كبير حول (دار ودَاي) نشر في سنة 1904، و كتب عن بُعْدٍ خلال عامي 1901–1902، عندما كان الكبيتان جوليان مقيماً في نديلي عاصمة دار كوتي[1]، وهو مقال يعتمد على السرد وكثير من التكرار، ولم يؤكد من أي مصادر أخرى، وهذا في حد ذاته ينطوي على كثير من عدم التثبت.

وفقاً لرواية جوليان فإن سلطان ودَاي محمّد الشريف الذي حكم (1835–1858) كان قد التقى بالشيخ محمّد بن علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية في مكة المكرمة قبل وصوله إلى عرش ودَاي، أي قبل وقت قصير من توليه مقاليد الحكم.

نص جوليان:

(أصبح متحمساً للمذهب الجديد (السنوسية)، فتعنتهم يرضي شخصيته الشرسة، حتى إنّه أصبح عضوا بهذه الطائفة، حيث تنبأ له الشيخ محمّد السنوسي تسلم عرش آبائه)[2].

ومع وصول محمّد الشريف إلى عرش ودَاي سارع إمام الحركة السنوسية إلى إرسال تحياته إلى السلطان الجديد، ووفقا لجوليان فإن السيد محمّد بن علي السنوسي أطلق على ابنه الأول اسم محمّد الشريف؛ تكريماً له.

ومع ذلك فإن هذا النص يتضمن عدة احتمالات:

أولاً: من المبكر جداً الحديث عن نشاط دعوي للسنوسية على هذا النحو، ففي حوالي سنة 1835 كان محمّد بن علي موجوداً في مكة المكرمة[1]، وممثلاً لأستاذه أحمد بن إدريس صاحب

1 دار الكوتي واحدة من البلديات الثلاث في محافظة بامينغوي في جمهورية أفريقيا الوسطى. والمركز الرئيسي للبلدية هينديلي، عاصمة الولاية. للمزيد من المعلومات انظر : https://fr.wikipedia.org/wiki/Dar_El_Kouti_(commune) المترجم

2 Capitaine JULIEN , « Le Dar-Ouadaï », Bulletin du Comité de l 'Afrique française, Renseignements coloniaux, février 1904, p. 53

التعاليم الصوفية، التي لا تتميز بأي حال من الأحوال عن غيرها، ولكن جوليان ومع دلالات سياسية أطلق واستخدم "اسم التعنت[2] ربما للتحقير أو التقليل من شأنهم"[3].

إنّ ظهور الحركة السنوسية في أفريقيا الشمالية (على ساحل برقة كان في نهاية عام 1842) ومن ثم بدأت الحركة السياسية بالتوجه إلى الصحراء، ونحو أماكن أبعد تأثيراً[4].

أما بخصوص محمّد الشريف الذي ولد سنة 1846 فهو الابن الثاني وليس الأول للسيد محمّد بن على السنوسي.

وأخيراً –وقبل كل شيء– فإنّ جوليان في هذا النص يوضح تأثير السنوسية في سلطنة ودَاي في هذا الوقت، وهو بعيد عن الحقيقية.

<u>نص جوليان</u>

((بسبب السلطان محمّد الشريف انتشرت الحركة السنوسية في ودَاي، بالإضافة إلى أبناء السلطان كانوا منتسبين إلى السنوسية، ناهيك عن المسؤولين الحكوميين وجميع أعضاء المحاكم، وأغلب الناس المستنيرة أو المتعلمة، والشباب الذين يدرسون في أبشة في المدارس القرآنية الجديدة، فضلا عن النعم التي تعلق عليها))[5].

كل المؤرخين الذين اشتغلوا على تاريخ ودَاي يعرفون أن هذه التأكيدات لا أساس لها من الصحة على الإطلاق[6]، ومع ذلك فإن رواية جوليان تدور حول تأثير السنوسية على السلطان القادم

1Pour la biographie de Muhammad al-Sanûsï, voir Knut S. VIK0R, « Sufi and Scholar on the Désert Edge. Muhammad b. 'Alï al-Sanûsï (1787-1859) », University of Bergen, Ph. D., 1991, 376 p.
)Londres, Hurst, 1995.(

2متعنت: يقصد به صاحب فكر متشدد. المترجم.

3Sur le maître de Muhammad al-Sanûsï et la nature de ses enseignements, voir R. S. O'Fahey،Enigmatic Saint. Ahmad Ibn Idris and the Idrisi Tradition, Londres, Hurst, 1990.

4.تأسست زاوية تازربو شمال الكفرة في عام 1848–1849، وزاوية الجوف في أرخبيل الكفرة حوالي سنة 1856، وزاوية شمادور وزاوية كاور حوالي 1861–1862.

5Ibid, p. 56

6Voir notamment MoukhtarBacharMoukhtar, « De 1909 à 1960. Aux confins des États. Les peuples du Tchad oriental et leur évolution dans un Ouaddaï statique », Université Paris VII, thèse dedoctorat de 3e cycle, 1982, qui consacre une douzaine de pages (138-152)

لودَاي من مكة المكرمة، بناها على العلاقات الشخصية الوثيقة بين السلطان المقبل ومؤسس الحركة السنوسية، وعلى اسم "محمّد الشريف" الذي أطلقه الأخير على ابنه لهذا السبب، وبخصوص دخول السنوسية إلى ودَاي فإنّ المعلومات التي جمعت جزئياً أو كلياً عبر مجموعة من الكتّاب الذين لم يرجعوا إلى المصادر والسجلات؛ للوقف على الحقيقة بل إلى مجموعة أو سلسلة من المعلومات والتأكيدات الهشة[1].

تميزت الحقبة الأخيرة من عهد السلطان محمّد الشريف بموقفه العدائي من التجار الأجانب، التي من الصعب فهمها قبل قراءة مصادر المرحلة ودراستها، ونحن نعتقد عكس ذلك، فينبغي الحذر الشديد من هذه المعلومات، والنظر فيها للمرة الثانية والثالثة[2].

تحدث مختار بشار مختار في رسالته للدكتوراه المذكورة أعلاه في اثنتي عشرة صفحة عن دور السنوسية استناداً لتحقيقات شفوية "خاصة مع السلطان ودَاي علي سيليك" يضع دور الإخوان في المنظور الديني" من وجهة نظر دينية، لم يكن للسنوسية أي تأثر على المجتمع الوداني وهو على الطريقة التيجانية. فقط في منطقة أميغو، أخبرنا الراحل سلطان عي ىسيليك، يمكننا أن نجد أتباعا للسنوسية والميرغانية، والواقع أن منطقة أم –سيغو هي منطقة التجار الأجانب من الجالية الليبية والسودانية والنيجيرية. وكان المقيم السنوسي في أبشة يمثل الخليفة، ووظيفته الممثل التجاري أكثر منه ممثلاً دينياً للإخوان. "الصفحات 149–150" ومع ذلك، فإن عضوية المؤسسة الدينية في ودَاي التيجانية موضوع آخر يستحق الدراسة، وللمزيد من المعلومات حول الأمام فيودَاي انظر:

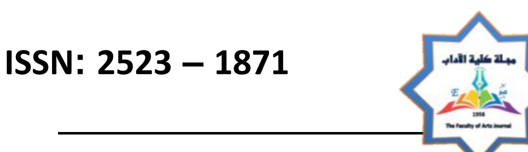
: Issa Hassan Khayar, Tchad. Regards sur les élites ouaddaïennes, Paris, CNRS, 1984,P 231

1 نيقولا زيادة (المرجع السابق 1958)،الذي يقدم تقريرا عن هذه الرواية، ص 49–50، ويذكر لنا كتاب رين RINN، مرابطي وإخوان الجزائر 1884 ص 506. في الواقع يتحدث رين بشكل جيد عن تأثير السنوسية في ودَاي ولكن لايقول شيئاً عن لقاء محتمل بين السلطان محمّد الشريف والسيد محمّد بن علي السنوسي في مكة (المرجع نفسه، ص 510). أما بخصوص إيفانز برتشارد (1949 المرجع نفسه) يذكر اللقاء بين السلطان ومحمّد بن علي، ولكن لا يذكر مصدره. ويؤكد: جايسبولدينغوليدوينكابتيجنز (التحالف الإسلامي، علي دينار والسنوسية، 1906–1916، إيفانستون، مطبعة جامعة نورثوسترن، 1994: ص 7) كرر هذا التأكيد على أساس أنهما سلطتان سابقتان، ولكن هذه "الأسطورة" يجب أن يكون لها روايات متعددة المستكشف= =الأمريكي روزيتا فوربس، مرورا بجالو خلال رحلتها إلى الكفرة بعد الحرب العالمية الأولى، يجتمع مع عبد الرحيم وهو ضابط سنوسي يروي قصة أخرى يصف عبدالرحيم مدى تأثير السنوسية في بورنو والسنغال والسودان وودَاي، ويقول فوربس:" فقط في ودَاي لا يوجد شيء، لأن السلطان قال لسيدي بن علي السنوسي "سنكون دائما أصدقاء وحلفاء، ولكن إذا كنت تهدف إلى بناء زوايا سنوسية هنا حتى ولو كانت قرآنية سوف يكون قهر لنا" انظر:

The Secret of the Sahara: Kufara, New York, Doran, 1921 p. 119).

سيدي بن علي" هو محمّد بن علي مؤسس السنوسية (توفي عام 1859). لذا يجب أن يكون السلطان وداي محمّد الشريف، ولكن خلافا للسرد السابق هو بالفعل السلطان وأنه يعتزم فقط أن يعتبر نفسه بأنه "صديق وحليف.

2أجرى جوليان تحقيقاته وجمع مادته العلمية خلال إقامته لمدة 18 شهرا في دار كوتي، 1901–1902، وذلك باستخدام مخبرين من معظم المجموعات العرقية في المنطقة. أما بالنسبة لوداي في ذلك الوقت لم يكن من السهل الوصول إليها. الكتابة عن بعد أكثر من خمسة وستين عاما يعد زعم الحقائق، اعتمد جوليان على المخبرين ومما لا شك فيه أن بعضهم قلق من سياق الأحداث في ذلك الوقت، إن التأكيد من قبل الفرنسيين على صلابة العلاقات بين ودَاي والسنوسية هو في الواقع عمل رائع.



ISSN: 2523 – 1871

ومع ذلك فإن النقد التاريخي ليس سوى المستوى الأول في فهم هذه الرواية، وأن الحركة الواسعة في التبادلات بين الطرفين يدل على أن التحالف بين السنوسية ووداَي كان في ذروة العلاقة بينهما، و من خلال السرد الذي أسس فهم العلاقة الشخصية بين مؤسس السنوسية، و معاصره السلطان محمّد الشريف وهو واحد من أهم ثلاثة حكام من السلالة العباسية التي حكمت وداَي في القرن التاسع عشر، وهو مؤسس العاصمة أبشة.

تأسيس التحالف العابر للصحراء وإدارة طريق أبشة الكفرة بنغازي

في الواقع ومن المنطقي أن نعتقد أن العلاقات السنوسية الودانية قد تطورت بفضل القوافل، وهو الإطار المنطقي والحقيقي لهذه العلاقة، وأن صعود هذه العلاقة وتطورها يمكن التأريخ لها بفترة حكم علي (1858–1874) ابن وخليفة السلطان محمّد الشريف، فقد شهدت فترة حكم السلطان علي تدشين محور أبشة بنغازي، فأطلق عليه لقب "رائد الطريق العابرة للصحراء"، ثم شاهدنا سلطان وداَي والسنوسية يبذلان جهوداً متقاربة؛ لبسط السيادة، وتهدئة شعوب الصحراء، وتأمين طرق الصحراء؛ من أجل انتعاش التجارة، وبعد هذا التاريخ 1860–سيصبح كل شيء واضحاً وثابتاً– ويبدأ إخوان السنوسية إرسال رسلهم ومبشريهم إلى كانم وكاوار وبركو(1).

تم تنظيم هذا الفضاء التجاري والسياسي الذي لعب فيه التجار –مجابرة جالو القادمين من برقة– الفعليات الاقتصادية الرئيسية بين الشمال والجنوب، أما السلطان علي فهو الممثل التجاري الرئيسي للجنوب، وأما السنوسية فهي لا هذا ولا ذاك، بل وسيط لتهدئة الطرق التجارية وتأمينها.

حتى هذه اللحظة ينبغي توخي الحذر، والتمييز بين سجلات قوية ومختلفة: الانتماء الفعلي للسنوسية والتعاون التجاري والسياسي. إن جوهر العلاقة بين وداَي والسنوسية الاهتمام أساساً بسلامة الطرق الصحراوية، وازدهار الأعمال التجارية، وهذه تنتمي للسجل الثاني، وربما يكون

1بخصوص دخول السنوسية لهذه المناطق انظر:
Nachtigal, Sahara and Sudan, tradangl. A. G. et H. Fisher, Londres, Hurst, t. II, 1980, p. 63-65 (Kaouar), 338 (Kanem), 367-368 (Borkou) 338 (Kanem), 367-368 (Borkou).)

السلطان علي تابعاً شخصيا للسنوسية[1] في القرن التاسع عشر، ولكن هذه التبعية لا تلزم المؤسسة الإسلامية المحلية الودانية، ولا السكان[2].

أدى وفاة علي عام 1874، ووصول أخيه يوسف للعرش إلى تكثيف العلاقات بين سلطنة ودَاي والسنوسية، ففي عام 1876 –وهي السنة التي بلغت فيها الصادرات الأفريقية الحد الأقصى والمطلق، من حيث القيمة والكمية إلى ميناء بنغازي[3] –وجدت برقيات قنصلية هذه المدينة أول ذكر للتبادلات وإضفاء الطابع المؤسسي بين سلطان ودَاي وإمام السنوسية.

في السنوات الأخيرة انتشر نفوذ السنوسية في ودَاي، حيث أسست العديد من الزوايا، ففي كل عام يرسل سلطان تلك الدولة له الهدايا، التي تتكون من مئات من العبيد والعاج والنعام والغنائم[4].

والمعلومات الأولية غير صحيحة، فلم يكن هناك زاويا سنوسية في ودَاي، والاستثناء الوحيد هو وجود مكان للصلاة خاص بالتجار القادمين من الشمال، والثاني بخصوص الصادرات فهي أقل أو أكثر، سنرى لاحقا كيف يمكننا محاولة تقييم وتحليل هذه التجارة.

منذ أواخر عام 1870م – أخذ المراقبون الفرنسيون بناء على ملاحظات ريكارد– كان وضع ودَاي في المدار أو النفوذ السنوسي "هذا وقت و زمان ودَاي–السنوسية " حتى أصبح شائعاً

1C'est ce qu'affirment Duveyrier en 1884 (p. 71) et Nachtigal (1873, publié en 1889, trad. A. G. B. et H. Fisher, 1971, p. 43). Nous faisons ici référence au pamphlet, souvent repris sansde Henri Duveyrier, « La confrérie musulmane de Sidi Mohammed ben Ali Es-Senoûsî et sondomaine géographique en l'année 1300 de l'Hégire : 1883 de notre ère », Bulletin de la Société degéographie, Paris, 1884, p. 145-226, article publié la même année sous forme de brochure (Paris، Société de géographie, 1884, 84 p., rééd. 1886)

2 شهادة ناختجال كبيرة في هذا الصدد، قبل دخوله إلى أبشة كان قلقا من انتماء علي إلى السنوسية (1971:43) ولكن بعد ستة أشهر، من بقائه في أبشة الوضع عكس ما حدث في كانم وفي بوركو. وعلاوة على ذلك، نراه يحافظ على علاقات ممتازة مع تاجر مجبري سنوسي، اسمه براني، ويقول "على الرغم من كونه سنوسياً فقد كان ودي للغاية بالنسبة لي" (مرجع سابق ص120).

3Jean-Marie Miège, « La Libye et le commerce transsaharien au xrxe siècle », Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, 19, 1er sem. 1975, p. 140

4 أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، القنصلية الفرنسية في طرابلس، المجلد 16 : ريكارد نائب القنصل العام في طرابلس، 23 فبراير 1876، مدير القنصلية العامة لدى وزارة الخارجية، 29 يونيو 1876م. بخصوص الدور الحاسم لريكارد، الذي ظل ما يقرب من ثلاثين عاما في بنغازي، وكان واحدا من أهم مؤسسي الأسطورة السوداء ضد السنوسية، للمزيد من المعلومات راجع رسالة الدكتور، جان لوي تريو: العلاقات الفرنسية السنوسية، ص 217–252.



ISSN: 2523 – 1871

في الأدب، كم في الكتاب الشهير لدوفيري الذي صدر عام 1884م، عن الحركة السنوسية و بالأخص ودَاي[1]. حقيقة ودَاي بلد لا يمكن اختراقها أمام المسافرين الأوروبيين، وذلك ما أتاح كل هذه الشائعات والتضارب في هذا الموضوع.

من المقاربة السياسية إلى المقاربة الجغرافية

منذ سنة 1880 م، أصبح الوضع في الإقليم أكثر خطورة؛ حيث شهدت هذه الفترة صعود قوى محلية متمثلة في أولاد سليمان في كانم، والمهدية في السودان، ورابح في باقرمي وبورنو، و قريبا التهديد الفرنسي.

ولهذا فإن السنوسية وسلطنة ودَاي عملت على إنشاء تحالف قوي ذي طابع سياسي، وأخذت القوتان تتشاوران بانتظام في شؤون المنطقة، وتسعيان لتبنيا موقفاً مشتركاً في وجه القوى التخريبية التي تظهر في الإقليم[2]، وعلى الرغم من طول التحالف وقوته فقد كانت له حدود واضحة، فسلطان ودَاي كان يعامل إخوان السنوسية كقوة خارجية صديقة، وفي ذات الوقت لم يعزز وجودها في البلاد، والسنوسية من جانبها ترى في التحالف مع سلطنة ودَاي حجر الزاوية في سياستها الصحراوية، وأحد أركان نظامها الصحراوي، ولكنها لا تريد أن تقتصر عليه، أو يحد من أعمالها في السودان الغربي؛ على سبيل المثال مشروع التفاوض–دون جدوى–مع رابح، على الرغم من معارضة ودَاي[3].

1 استنادا إلى هذا المعلومات يتأكد أن ودَاي أصبحت سنوسية بالكامل، يستنتج دوفيرية أن السنوسيين في هذه المناطق "2,500,000 أو 3,000,000" فرنك الموضوعات " الاستماع إلى أوامره مهما كانت" حسابات رائعة إن وجدت! (المرجع السابق ص 5)

2 في أخطر لحظات تهديد الحركة المهدية لسلطنة ودَاي في عام 1884–1885، على وجه الخصوص أرسل السلطان يوسف رسائل إلى السيد محمّد المهدي الإمام الثاني للسنوسية في الجغبوب (على الحدود الليبية المصرية) لطلب المشورة والمساعدة. وكما نعلم، فإن إجابات محمّد المهدي ثابتة دائما في إدانة المهدية، ولكنها حذرة جدا في ما يتعلق بأشكال العمل. بهذا الخصوص انظر:

Voir AMAE, CPC, vol. 24, Vice-consul Ricard à consul général Féraud, 7 juillet 1884, dans Féraud à MAE, 29 juillet 1884, et Archives du poste de Tripoli, correspondance avec Benghazi, vol. 18, Ricard à consul général= =Destrées, 12 octobre 1888 G. Djian, « Étude sur les senoussistes et leur action dans le Centre africain », Islam et Sociétés au sud du Sahara, n° 5 (1916) 1991, p. 1 19 ; Jean-Claude Zeltner, Les pays du Tchad. ., p. 76 et 90

3.بخصوص هذه المفاوضات التي أجريت بين 1895–1898، انظر:

voir Jean-Claude Zeltner, Les Pays du Tchad, p. 179 sq., et Jean-Louis Triaud, Les relations, t. II, p. 852-858.

من الواضح –أيضاً– أن الحركة السنوسية لم تتحول إلى عسكرة الزوايا حتى ذلك الوقت، وليست على استعداد لإرسال قوات عسكرية إلى جانب القوات الودانية، فاقتصرت مساعداتها على تقديم المشورة والنصائح العامة لسلطان ودَاي.

كما أنّ تحالف السنوسية مع سلطنة ودَاي ضمانة للطريق نحو الشمال شريان الحياة الاقتصادي، ومحور استراتيجي للأسلحة المهربة القادمة من ساحل المتوسط.

من بنغازي إلى طرابلس والقناصل الفرنسيون يحاولون جمع المعلومات عن طريق الكفرة، أبشة وعلاقة إخوان السنوسية بسلطنة ودَاي، ومن الصحراء الشاسعة غالباً ما تتداخل مع نوعية المعلومات التي يتم جمعها، ومع ذلك فقد تطورت وجهة النظر الفرنسية كثيرا، وبعد العمل لمدة ثلاثين عاما في بنغازي، ريكارد، أحد آباء الأسطورة السوداء، ها هو في رحيله[1]، في نهاية القرن، نهاية شيطنة السنوسية، المعلومات التي ترسلها الإرساليات القنصلية إلى باريس، هي الآن أكثر هدوءًا وأقل خياليةً.

ففي نوفمبر 1893 رابح يستولي على كوكاوا عاصمة برنو، وقبل ذلك تجاوزت ودَاي أسوأ لحظات بعد تقدم الحركة المهدية في دارفور عام 1880، مما دفع السلطان يوسف في عام 1894، إلى مضاعفة اهتمامه بجيرانه الشماليين؛ الحركة السنوسية، والعثمانيين، وذلك لطلب مساعدتهم، وهذا ما لاحظه القنصل الفرنسي ريكارد عندما ذكر أن هدايا سلطان ودَاي إلى إمام الحركة السنوسية هذه المرة أعلى بكثير من الهدايا المعتادة حيث ذكر 4000 كيلو من العاج[2].

في بداية عام 1895–في فترة الازدهار التجاري وزيادة الطلب على بضائع ودَاي– يختار محمّد المهدي الزعيم الثاني للحركة السنوسية وابن المؤسس الاستقرار بين بنغازي وأبشة في الكفرة، موقع هادئ تم اختياره من قبل الزاوية السنوسية؛ ليكون مقراً لتوقف القوافل التجارية، بعد

1عين ريكارد في بنغازي لخليفته، برتراند، في 4 ديسمبر 1865–8 يونيو 1895.
2AMAE, CPC, Tripoli et Benghazi, vol. 31 : Ricard à MAE, 23 février 1894

أربع سنوات ينتقل السيد المهدي إلى عاصمته الجديدة قرو، وبذلك يكون قد اقترب من أبشة على الرغم من أن العاصمة الجديدة تقع خارج أراضي ودَاي.

إن أسباب هذه المسيرة الطويلة للسيد المهدي نحو الجنوب، كان يُسَاء تفسيرها أحياناً، رأى بعضهم الرغبة في منع دخول الفرنسيين (الذين لم يصلوا بعد إلى بحيرة تشاد) غير أن هذا التفسير لا يصمد أمام اختبار المصادر أو تحليل الحقائق.

إن الغرض الأساسي من توجه السيد المهدي نحو الجنوب هو الابتعاد عن الضغوط التركية، التي أصبحت قوية، بشكل خاص في هذا الوقت(1)، غير أن قوة جذب بلدان الجنوب –لا سيما ودّاي– لعبت أيضاً دوراً في هذا الاستقطاب الجنوبي.

وبذلك أدارت الحركة ظهرها مؤقتاً للبحر المتوسط، وقررت الاستثمار بشكل أكبر في الصحراء الكبرى، التي بدأت في استكشافها منذ ثلاثين سنة ماضية. في سنة 1890 – شهدت الحركة التجارية بين بنغازي وأبشة ازدهاراً كبيراً، ووصلت التجارة بين أبشة وبنغازي إلى أقصاها، في حين انهار ميناء طرابلس، الذي تعرض للخطر؛ من جراء أعمال زعزعة الاستقرار من قبل أولاد سليمان ورابح، وعلاوة على ذلك فإن هذه هي الفترة الوحيدة التي يمكن فيها العثور

1 عبد الحميد الثاني، الذي جاء إلى السلطة في عام 1876، ثم سعى لحشد كل القوى الإسلامية في إمبراطوريته. من ناحية أخرى فإنه منذ عام 1880، أخذ يشك في الحل التوفيق الذي ترك للسنوسيين السيطرة على دواخل برقة. أظهر السلطان عبد الحميد رغبة في إعادة السيطرة على هذه المنطقة وفرض الضرائب الحالية والمتأخرة لسنوات سابقة. (بهذا الخصوص انظر –على سبيل المثال–: لوغال، "الحكومة العثمانية والسنوسية: إعادة تقييم "المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 1989،ص. 99–100).

Le Gall, « The Ottoman Government and the Sanûsiyya : A Reappraisal‹« International Journal ofMiddle East Studies, 1989, p. 99-100).

و كما ذكر أحمد الدجاني، نقلا عن السيد أحمد الشريف (ابن شقيق السيد المهدي وخلفه) و شكيب أرسلان (أن سبب الانتقال هو شعور المهدي بوجود مؤامرات للقبض عليه، يدبرها الترك والنصارى، وأغلب الظن القبض عليه ووضعه تحت الإقامة الجبرية) (أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، ص 217. (انظر، كما يكتب الدجاني، نقلا عن أحمد الشريف (ابن شقيق المهدي وخلفه) وشكيب أرسلان، "كان سبب نزوح المهدي له إدانة أن الأتراك والمسيحيين كانوا يتآمرون لوقفه. ولاشك أنه كان على علم بنية وضعه تحت الإقامة الجبرية في إسطنبول، راجع(أحمد صدقي الدجاني، ص 217)

في المحفوظات البريطانية والفرنسية[1] على نصوص تعطي مؤشرات عن الكميات التي تمكننا من تقيم حصة السنوسية في هذه الحركة التجارية[2].

خلال أربع سنوات (1896–1899)، استقبل زعيم الحركة السنوسية من مملكة ودَاي بعض الهدايا التي تصل قيمتها السوقية إلى 600 ألف فرنك، بمعدل سنوي 150 ألف فرانك[3]، وفي حالات يكون فيها مكوّنات هذه الهدايا معروفا، يبدو أن 80% منها تتكون من بضائع جيدة متجهة للبيع في أسواق المتوسط، وتتكون هذه البضائع من العاج وريش النعام، وفي المقابل فإنّ نسبة العبيد أكثر تواضعاً بكثير، وفي حدود المعلومات المتاحة لنا فإنه ينخفض في القيمة النسبية من 25.6٪ من العروض في 1896، إلى 16.7٪ في 1897 و12.7٪ في 1899.

وعلى الرغم من طبيعتها الجوهرية إلا أنّ هذه البضائع لا تمثل سوى جزء محدود من القيمة الإجمالية لصادرات ودَاي على مدى ثلاث سنوات 1897–1898–1899، ومن الممكن إجراء المقارنات من خلال الأرقام المتاحة لنا[4]، فقد استقبلت السنوسية هدايا السلطان من ريش

1 بالنسبة للصادرات من ميناء طرابلس، وفقا للمصادر الفرنسية، انظر AMAEK، والقنصليات والمراسلات التجارية، (CCC) انظر كذلك
États annuels « Commerce et navigation du port de Tripoli », et Benghazi, vol. 2, Notes périodiques sur le mouvement du commerce

بخصوص المصادر البريطانية التي تحدث عن صادرات ميناء طرابلس انظر:

Voir Marion JOHNSON, « Calico Caravans: The Tripoli-Kano Trade after 1880 », Journal of African History, XVII, 1, 1976, p. 105

2 لعرض المصادر وتحليل الأرقام والجداول انظر إلى أطروحتنا:

Jean-Louis Triaud, Les relations, t. II, chap. XXVIII, « Les comptes de la Sanûsiyya (1894-1901. Essai » (p. 897-961, 20 tabl)

3 ويحسب هذا التقدير من المعلومات الواردة في ستة مصادر، هي:

El-Hachaichi, Voyage au pays des Senoussia à travers la Tripolitaine et les pays Touareg, Paris, 1903, p. 131 ; Bertrand, vice-consul de France à Benghazi à MAE (AMAE, nouvelle série, Afrique occidentale, vol. 47 ; 14 novembre 1897, et vol. 48, 18 juillet 1898 ; Public Record Office, Londres, FO 2/231, consul. Alvarez à Foreign Office, 24 mars et 31 mai 1899, cité par J.-C. ZELTNER, 1988, p. 204 ; G. Djian, op. cit., p. 135).

4 صافي الصادرات من ميناء طرابلس، التي تتطابق مع تقديرات القنصلية والإحصاءات الإدارية، ومعروفة في المصادر الفرنسية

)AMAE, Paris, CCC, Tripoli, vol, 46 (

États annuels du commerce et de la navigation du port de Tripoli) et britanniques (Marion Johnson, « CalicoCaravans : The Tripoli-Kano Trade after 1880 », Journal of AfricanHistory, 1976، p. 105). Le chiffre des exportations du port de Benghazi est connu par les sources françaises (AMAE، CCC, Benghazi, vol. 2 : Note sur le= =commerce de Benghazi, 14 janvier 1897 ; Mouvement du commerce et de la navigation à Benghazi pendant l'année 1896, 20 juillet 1897 ; Mouvement... pendant l'année 1897, 30 août 1898 ; Mouvement... pendant l'année 1898, 1er mars 1899). Il s'agit également d'estimations.



النعام والعاج بمتوسط تقريبي قدره 5% من قيمة نفس الصادرات من ودَاي إلى موانئ طرابلس وبنغازي[1]، هذه النسبة تعد نوعاً من حق غير رسمي دفع على هذا النحو إلى الزوايا السنوسية.

هذه هي النسبة المئوية تفرض "دمغة" وهي إلى حد ما متواضعة، وربما ينبغي إضافة عدد من العطايا التي هي خارج مصادرنا ولا تذكرها، وبالتالي لا تخضع إلى أي اختبار إحصائي، ولا سيما العمولات المحتملة على التجارة السرية في الأسلحة بين المتوسط ووداَي.

إنّ انخفاض نسبة العبيد من خلال هذا التقييم هي مفاجأة رئيسية؛ لأنّ المصادر الفرنسية في ذلك غالبا ما تتحدث عن دور إخوان السنوسية في تجارة الرقيق، ومع ذلك يجب التمييز بين نشاط التجار المحميين من قبل السنوسية، الذين نقلوا العبيد إلى الشمال (أكثر من ألفين في السنة خلال نهاية القرن)[2] وبين الزوايا السنوسية التي تلقتهم كهدية، وفي نهاية المطاف أعادوا بيعهم. هذه الأرقام هي أقل من المتوسط، ففي المتوسط تحصّل قادة الإخوان على أقل من 200 عبدٍ في السنة من جميع السلطانيات "التشادية" خلال السنوات من 1890–1899 .

ولذلك فمن المناسب حساب ما قدم من عبيد لقادة السنوسية، وهم عشرات في الغالب، ونادرا ما تكون مئات، وأبداً لم يصل الرقم إلى آلاف[3].

---

1 نحن لا نستخدم أدوات الحساب هذه لأنها تنطوي على عدة أشكال أو مظاهر واردة عند جان لوي تريو في موضع سبق ذكره، التقديرات التي توصلنا إليها من المصادر هي كما يلي: متوسط القيمة السنوية للعاج وريش النعام من سلطان ودَاي إلى إخوان السنوسية (الفترة 1897–1899): F332 104 ؛القيمة، متوسط الصادرات السنوية من العاج وريش النعام من الموانئ طرابلس وبنغازي (1896–1898): 2 069 989 .F (J.-L جان لوي تريو، مرجع سابق، ص 939–941.

2 C'est l'estimation moyenne fournie par R. Austen pour la période 1870-1890 (R. Austen » ‹The Trans-Saharan Slave Trade : A Tentative Census », in Henry A. Gemery& Jan S. Hogendorneds‹ The Uncommon Market. Essays in the Economie History of the atlantic Slave Trade, New York‹Académie Press, 1979, p. 37-39). D'autres sources donnent des chiffres inférieurs : «Les esclavesprovenant du Soudan central, du Bornou et du Ouadaï étaient encore estimés, en 1881, à quelque 500 à1 000 par an par le consul d'Italie » (Jean-Louis Miège, La Libye, p. 144-145).

3 لإجراء مثل هذا التقييم قمنا بتجميع المعلومات المشفرة الواردة في المصادر الخمسة المذكورة أعلاه (انظر الحاشية 31 أعلاه). على هذا الأساس فإن متوسط التقدير السنوي هو 84 العبيد التي تقدمها سلاطين ودَاي إلى السنوسية من 1896 إلى 1899، ونحن نفترض وفقا لتقدير "نموذج" قدمه جوليان (كاب جوليان، "لودار ودَاي"،نشرته لجنة أفريقيا الفرنسية للمعلومات الاستعمارية، مايو 1904،ص. 139–140)،أن مامجموعه صدرته= =ودَاي جاء تقريبا ما يعادله من رؤساء آخرين في المنطقة (باغيرمي، كانم، وما إلى ذلك) للاطلاع على الأرقام التفصيلية انظر أطروحة الدكتور جان لوي تريو (العلاقات مرجع سبق ذكره 898 المجلد الثاني، 950–959)

على أي حال يبدو أن ودَاي هي المزوّد الرئيسي لقادة السنوسية، التي تظهرهم أكثر النصوص في كثير من الأحيان معوزين ومحرومين من الثراء في ذلك الوقت. إن تحرك قادة السنوسية نحو الكفرة ثم قرو، تعزى في المقام الأول إلى التهديد العثماني، وتكشف –أيضاً– عن قوة جذب مملكة ودَاي، وإغراء قادة السنوسية بالهدايا الثمينة من السلطان وكبار الشخصيات.

الصراع على الخلافة في ودَاي

الأسطورة السوداء واكتمال نظرية المؤامرة

هذا هو الجزء الأخير من هذه الدراسة حول العلاقة بين إخوان السنوسية وأبشة، إنّ دور الحركة السنوسية في ودَاي خلال الفترة من 1899–1902، وأزمة الخلافة الطويلة التي أججت السلطنة، قد قُدِّرَتْ بشكل مختلف، فدور السنوسية في هذا الصراع–على العرش في ودَاي–قد حظي بتقديرات مختلفة من معظم الكتّاب الفرنسيين في ذلك الوقت؛ بسبب التضليل في المعلومات –في بعض الأحيان– المتناقضة والمتشابكة بشكل لا تنفصم عن الحقيقة، بالإضافة إلى أن هذه المصادر كانت تعمل عن بُعْدٍ في محاولة لاختراق التعتيم الكبير الذي يحيط بمجتمع ودَاي، وذلك في محاولة لفك رموز وفهم وتحليل المؤامرات في القصر، التي تتكاثر حولها الافتراضات والتعليقات.

إن "شرح السنوسية" بواسطة الأفكار التي غرست في أذهان أجيال من الجيش والمستعمرين عبر ما كتبه دوفيريه وكثير من الدعاية، احتفظت بقوتها الموجهة، وعادت بقوة ودخلت حيز التنفيذ بدخول تشاد، فقد أبلغ عن وجود محمّد السني ممثل الحركة السنوسية[1] في وسط أفريقيا، الذي كان يقيم في أبشة في ذلك الوقت، حيث بالغت مراكز الاستماع " المخابرات الفرنسية" في تخميناتها بشأن دور هذا المبعوث.

1 محمّد السني (1851–1932) هو ابن عبد الله السني، من سنار (السودان)،الذي كان قد أسس في 1850، زاوية مهمة في مفترق طرق في إقليم طرابلس، تولى محمّد السني مكان والده حتى وفاة الأب في سنة 1877، أرسله أستاذه سيدي محمّد المهدي إمام السنوسية في مهمة في جنوب الصحراء (1895–1899) ثم تم تعينه في أبشه (1902–1899) وبعد ذلك تولى مسؤولية زاوية قرو، حيث كان المسؤول المباشر عن جميع المؤسسات السنوسية في الجنوب، خاصة في إقليم بركو.

ساهم جوليان و كاربو[1] على وجه الخصوص في تفسير عمل وإقامة المبعوث السنوسي بأنّه "لتقويض أو تخريب" سلطنة ودَاي عن طريق الآليات المعتادة للأسطورة السوداء، حيث ساهمت في توزيع هذه الرواية ونشرها.

واليوم تحت تصرفنا لتصحيح هذه الرواية "من جانب واحد" أحد المصادر التي ظلت طي النسيان، ذلك أنه في عام 1913 سقط آخر معقل للحركة السنوسية في عين كلك في إقليم بركو بعد حصاره "في 27 نوفمبر"، ثم واصلت القوات الفرنسية تقدمها بوتيرة سريعة نحو الشمال حتى زاوية قرو المحصنة مكان إقامة محمّد السني منذ عشر سنوات، إذ نجا من الوقوع في الأسر بعد سقوط الزاوية "في 14 ديسمبر1913 " واستولت القوات الفرنسية على الأرشيف الخاص بالزاوية.

"جورج دجيان Georges Djian"[2] مترجم عسكري، هو الذي كان مسؤولا عن تحليل هذا الأرشيف، وقد فعل ذلك بمهنية كبيرة، نتج عن هذا العمل خلال عامين ما يعادل ماجستير بعنوان "دراسة عن السنوسية وعملها في وسط أفريقيا" بالإضافة إلى المحفوظات غير المنشورة باللغة العربية لعائلة السني، كما أن جوليان قد حصل على تعاطف بعض أفراد أسرة الشيخ محمّد السني الذين وقعوا في الأسر وكُلِّفَ بحراستهم، وبالتالي تمكن من استكمال معلوماته بشهاداتهم الشفوية.

اختفت هذه المذكرات بشكل غريب من معظم المحفوظات، ولم تطبع، ومع ذلك فإننا نعلم عبر العديد من المؤشرات أنها شهدت في ذلك الوقت انتشارا واسعاً[3].

1Henri Carbou, La région du Tchad et de l'Ouaddaï. Études ethnographiques, dialecte toubou، Paris, Ernest Leroux, 1912, t. 1, 380 p. ; t. 2, 279 p.

2 يعقوب جورج دجيان، المولود عام 1887 في وهران. تم تعيينه في القوات الفرنسية في بوركو في عام 1913،وهو في سن 26 عاما، ترك تشاد بشكل نهائي في عام 1916. عن دوره ومساراته الشخصية، انظر جان لوي تريو، "إعادة اكتشاف السنوسية، والدراسة غير المنشورة للمترجم جيان، وفقا لأرشيف محمّد السني"، انظر :
"Islam et Sociétés au sud du Sahara, n° 5, novembre 1991, p. 105-108."

3 بالإضافة إلى القسائم المرسلة التي يمكن العثور عليها في الأرشيف (انظر أرشيف ما وراء البحار، إيكس إنبرو فانس، 18 H 51 [الملف الشخصي دجيان] وإيف، 4 D 16)، رسالة من جان تشابيل تؤكد على نشر الوثيقة على نطاق واسع: "عمل دجيان هو عمل أرشيفي نموذجي." وقد عثرنا في السابق على نسخ أخرى منه بصورة منتظمة في المحفوظات السياسية للعواصم الاستعمارية وفي عواصم المنطقة التي شهدت تهديداً كبيراً من السنوسية. . . توجد في أغاديز، وأخرى في بيلما، و ثالثة في نغويغمي [...] ""(رسالة شخصية إلى المؤلف، 2 شباط / فبراير 1977)، ولكننا لم نتمكن من العثور على النسخة الكاملة إلا في المحفوظات الوطنية في مالي (كولوبا).=

هذه الوثيقة تلقي الضوء على تاريخ الزوايا السنوسية، ليس فقط في ودَاي بل في جنوب الصحراء، من خلال تقديمها قبل سنة 1900 كمجتمع أو هيأة دعوية منزوعة السلاح، تقف على هامش السلطة السياسية دون المشاركة في قتال.

ذهب دجيان ضد الاتجاه السائد في الأدب المتخصص في ذلك الوقت وفي الأوساط العسكرية التي كان على اتصال معها، وهذا التناقض جنبا إلى جنب مع مختلف عمليات التحقق والتحقيق التي أجريت، مما يجعل من الممكن الاعتراف بهذا المصدر" كتاب دجاني " بدرجة عالية من المصداقية[1].

في حالة ودَاي فإن المراجعة النقدية التي اقترحها ديجان في كتابه مهمة؛ لفهم الصراعات ما بين عامي 1899–1902، المتصارعين الثلاثة المتعاقبين على السلطة هم: إبراهيم، وأبو غزالة، ودودموره (أو أربعة إذا أضفنا أصيل أو أسيل المرشح المدعوم من قبل الفرنسين)[2] في حين أن موقف ممثل السنوسية يظهر اتساقاً كبيراً، ولكن هذا ليس هو ما يعرفه الفرنسيون في ذلك الوقت.

أولاً وقبل كل شيء فإن الحركة السنوسية تحترم السيادة الشرعية في ودَاي، وهذا يعني – على نحو أدق– أنها من يملك العاصمة ويحظى بتأييد (الأجَاوِيدُ) les ajâwid[3]، وفي الوقت نفسه تعارض أي تهديد لملك المملكة، بل وتمنحهم التشجيع والدعم إذا تعرضوا للتهديد، وبالتالي فإن

=وقد استنسخت هذه النسخة منذ ذلك الحين، من قبلنا "جان لوي تريو"، في الإسلام والجمعيات في جنوب الصحراء، العدد 5، 1991،ص. 109–138،أندNo.6،1992،107-139 .p. وتشير الاقتباسات التي نقدمها من نص دجيان إلى هذه الطبعة المطبوعة.

لكن هذه النسخة الموزعة إلى الجنوب من الصحراء كانت في حد ذاتها ناقصة (الفصول الثمانية الأولى)،ربما كنتيجة إجراءات من قبل السلطات. ويظهر النص الكامل لدجيان (سبعة عشر فصلا) في سلسلة اللجنة المشتركة بين الوزارات المعنية بالشؤون الإسلامية التي يحتفظ بها في مركز المحفوظات الدبلوماسية في نانت، الوثائق 64.

1 ويبدو من ناحية أخرى أن الوثائق العربية الأصلية قد فقدت نهائيا. نص دجيان في هذه الحالة المصدر الوحيد المتاح.

2 إبراهيم (1899–1901)، الابن الثاني للسلطان يوسف. أبو غزالة (1901)، ابن السلطان علي، محمّد صالح، يدعى دودمورة (1901–1919)، الابن الرابع للسلطان يوسف. أصيل (أسيل) ابن شقيق يوسف وحفيد محمّد الشريف، وسيتم الترويج له من قبل الفرنسيين؛ للوصول إلى حكم ودَاي بعد سقوط أبشة سنة 1909

3 الأَجَاوِيدُ هيأة يتألف مجلسها من الجرمايات (الجرمة هو القائد العام للجيش الملكي وعقداء القبائل، وتقتصر وظائفهم في الإدارة والقضاء)، "المترجم" بخصوص تعريف المؤلف يذكر أن الاجواي في لغة العرب التشاديين جمع كلمة عقيد، للمزيد عن نظام الحكم في ودَاي انظر: الصادق أحمد آدم، نشأة مملكة ودَاي(1615–1909) مؤتمر الإسلام في أفريقيا نوفمبر 2006.


ISSN: 2523 – 1871

السنوسية لا تسعى إلى الحفاظ على رجل كائناً من كان، ولكنها تهدف إلى توطيد النظام الاجتماعي والسياسي القائم، هذه هي الاستراتيجية السنوسية، قطعاً لم تكن ثورية أو تخريبية.

دعونا نتذكر هنا قضايا تلك اللحظة، فقد أخذ السلطان إبراهيم إلى السلطة عن طريق كبار المملكة[1] أو الذين فضلوه على شقيقه الأكبر عبد العزيز، إبراهيم[2] سرعان ما تحول بسرعة ضدهم من خلال تفضيل أحد أصدقائه الذي يروج له من خلال دعوته لتسميته عقيد[3]على قبيلة "جاتني " Ja'âtné –اسم قبيلة عربية تقيم غرب أبشة، ورداً على ذلك انسحب عقداء القبائل "الكبار" وعقيد السلامات[4] والخصي شرف الدين ورئيس جماعة "القورعان" و المحكمة[5] من العاصمة وتحولوا إلى المعارضة في أكتوبر 1900.

محمّد السني كان أقرب إلى شرف الدين منه إلى جماعة المحكمة التي كان ينظر إليها بعين الريبة والشك، على الرغم من أن زعماء السنوسية يذكرون ممثليهم برغبتهم في الابتعاد عن الفصائل المتصارعة، يشعرون بالقلق إزاء هذا الصراع، ولكن عبثا هذه النصائح تكررت ثلاث مرات دون جدوى.

لا يزال محمّد السني مقيما في ودَاي، لكنه لا يتبع (الأَجَاوِيْد) الموجودين خارج أبشة، ولا يشارك في حركتهم، في فبراير 1901، هزم السلطان إبراهيم ومصطفى "عقيد جناتي" وتم القضاء عليهما من قبل خصومهم، واعترف السنوسيون على الفور بأحمد أبي غزالة خليفة له، الذي أعطى آمالاً كبيرةً بمجيئه، خصوصاً وأن السنوسية تتوقع منه استعادة العلاقات التجارية، ولكن معارضة

---

1 كبار المملكة هم عقداء القبائل المهمة في السلطنة، "المترجم".

2 السلطان إبراهيم الابن الأصغر للسلطان يوسف فترة حكمه 1889–1901.

3 هو العقيد مصطفى، الذي كان يُكِنُّ العداء للسنوسية في وداي وأصبح مستشار السلطان إبراهيم "المترجم".

4 السلامات اسم نهر يقع جنوب وداي، ويطلق كذلك على العرب المقيمين في هذه المنطقة، ويعد مركز عقيد السلامات من أهم المراكز في مملكة وداي. "المترجم"، للمزيد من المعلومات انظر: جان لوي تريو المرجع السابق ص 538 الهامش رقم 65.

5 كانت المحكمة جزءًا من النظام السياسي في مملكة ودَاي، وتنقسم إلى أربعة أقسام: الفاشر تفصل في القضايا السياسية والدينية والعسكرية،

ثانياً: محكمة التنجاك يرأسها الملك تفصل في القضايا المستعصية، ثالثاً: محكمة الجماعة تفصل في شؤون الحياة اليومية والشرعية، رابعاً: محكمة العقيد خاصة بالقبائل الرحل، ويتم ذلك تحت قيادة العقيد. للمزيد من المعلومات انظر: الصادق أحمد آدم، المرجع السابق. "المترجم "

جديدة بدأت تظهر ويرتفع صوتها ممثلة في جرمة[1] عثمان؛ من كبار الشخصيات في المحكمة، غير راضٍ عن عدم استشارته أو مشاركته في تعيين السلطان الجديد، الذي يرتبط بعشيرة القورعان من قبل والدته، وعلى الرغم من جهود المصالحة التوفيقية التي بذلها محمّد السني، فإن العلاقات تدهورت بسرعة كبيرة، ويجب على السلطان المعزول تماماً أن يتخلى عن عاصمته، وبعد ست أشهر من القتال أُعْلِنَ دودموره سلطاناً في ودَاي في ديسمبر 1901، وهزم السلطان السابق وشرف الدين الذي كان داعمه الرئيسي محمّد السني، وأعدم دون أن يكلف نفسه الدفاع عنه، مرة أخرى السنوسيون وممثليهم يتبعون ويؤيدون فقط الفائز، حتى إنّ محمّد السني يلتزم بنفسه بتأييد السلطان الجديد بشكل يتجاوز كثيراً ما قدمه للسلاطين السابقين[2].

من أجل مواصلة علاقاتها المميزة مع ودَاي تحتاج السنوسية إلى محاور شرعي مستقر، وفي سياق التقدم الفرنسي وبعيدا عن تناحر المتصارعين كانت السنوسية على العكس من ذلك، على استعداد لتأييد –بشكل فوري– الشخص الذي يبدو أن له اليد العليا في الصراعات بين الفصائل، هذا أبعد ما يكون عن نظرية المؤامرة التي يدافع عنها جوليان وكاربو[3].

بمثل هذا المنطق السنوسية لا تعترف بأي حلفاء متميزين، وتقبل بانتظام الأمر الواقع، وتترك على التوالي إبراهيم وأبا غزالة لما تكون في طريقها إلى العزلة والهزيمة[4]، لذلك لم تحدّد مصالح السنوسية في ودَاي مع أي فصيل على الأكثر، اعتمدوا من وقت لآخر على التحالفات المتعلقة بالشؤون التجارية مع إخوان السنوسية، وإلى استمرار وجودها في أبشة.

خلال هذا الصراع السنوسية قدمت نفسها باستمرار الحكم الوسيط على قدم المساواة، وكما هو الحال بانتظام فإن جهودها في هذا الاتجاه تفشل في معظمها، وهكذا يحاول محمّد السني –عبثاً–

---

1 الجرمة هو القائد العام للجيش الملكي . "المترجم "

2 اتفق التجار الطرابلسيون في أبشة على مساعدة السلطان الجديد، الذي فوجئت بأنه في وضع مالي ضعيف نوعاً ما. (G. Du an, op. cit., p. 136).

3H. Carbou, op. cit., 1912, t. 2, p. 140. ; Capitaine Julien, « Le Dar-Ouadaï », Bulletin du Comité de l'Afrique française, Renseignements coloniaux, mars 1904, p. 89.

4 يتم عرض موقف السنوسية وممثلها في هذا الصراع من أجل الخلافة، وفقا للمعلومات التي جمعها ديجان، المصدر السابق ص 132–137.

دون جدوى التوفيق بين أحمد أبي غزالة وجرمة عثمان[1]، ومع ظهور دودمرة محمّد السني يتوسط مرة أخرى –دون جدوى– لحشد المعارضين المهزومين[2].

طموح السنوسية على المستوى السياسي هو أن تصبح تدريجياً إماماً لعلماء الملكية شرفاء الصحراء، والمستشار المسموع عند أمراء ودَاي، وحول هذه النقطة فإنها غابت بانتظام عن هدفها، في حين أن الفرنسيين يتصورون في المؤامرات المظلمة، من قبل ممثل السنوسية من خلال مناوراته المكيافيلية" التي كان يرسمها دائما لصالحها، وواقع الأمر عكس ذلك، حيث اشتكت السنوسية من سلوك الودانيين، والعجز الخاص بهم لفعل أي شيء حيال ذلك، وقد نقل دجاني رسالة مطولة عن أحد كبار مستشاري إمام السنوسية السيد بسكري[3] وموجهة إلى محمّد السني في نهاية عام 1901، وأوائل عام 1902 نص الرسالة: (طالما الودائيون يعتمدون على فقراء لا يمكن اكتساب أي شيء منهم، بل هم الذين كانوا مهندسي سقوط كل السلاطين، وسيكسب الودائيون قدراً كبيراً من طردهم من ديارهم، يكسبون ممتلكاتهم من خلال أكاذيبهم، أدعو الله إزالتهم من الأرض، وتنقيتها منهم، حفظك الله بها بعيدا عن البلاد و هرطقتهم)[4].

فهذه الرسالة مليئة بالاستياء وتظهر من خلالها طموحات السنوسيين ومدى فشلهم.

ظل دودموره من جانبه صديقاً للسنوسية، حيث كان ذلك من مصلحته ومن صالح السيادة الودانية، خاصة في هذه الفترة من التكالب الاستعماري، ومع ذلك دودموره لم يصبح سنوسياً[5]،

1 هذه المحاولة معروفة عامة، حيث تؤكدها عدة مصادر مختلفة، للمزيد من المعلومات عن هذه المحاولة انظر: AMAE, nouvelle série, Afrique occidentale, vol. 49 : Vice-consul Bertrand à MAE, Benghazi7،décembre 1901 ; Capitaine Julien, op. cit., p. 92 ; Capitaine Dubois, « Le Baguirmi en 1902 », in Études et documents tchadiens, série B 1. Documents du Dépôt officiel d'archives de Fort-Lamy, I, Fort Lamy، Institut national tchadien pour les sciences humaines, p. 86.

2 "أرسل رسائل وهدايا إلى أسيل، ثم إلى أحمد غزالة وشرف الدين؛ للتخلي عن النضال الداخلي والتوصل إلى اتفاق مع دودمورة، الذي أصبح حاكم ودَاي، وللتوحد ضد المسيحيين الغزاة" (G. Djian, op. cit., p. 136)

3 محمّد حسن البسكري من أصل جزائري، واحد من أوائل صاحب مؤسسة السنوسية، الذي اعتبره ابنه بالتبني، والذي تزوج أخته في الزواجة الرابعة، ثم أصبح المستشار الخاص للإمام الثاني للسنوسية السيد محمّد المهدي.

4 ديجان لا يحدد تاريخ هذه الرسالة، ولكن من خلال سياق الرسالة يتضح أنها كتبت في نهاية 1901 في أوائل 1902.

5 وفقا لرواية ديجان فإن السلطان دودموره وعد محمّد السني بمساعدته في بناء زاوية سنوسية، ولكن المؤسسة الإسلامية في ودَاي عارضت هذه الخطة، مما اضطر السلطان أن يتخلى على هذه الرغبة (op. cit., p. 136).

فعندما طرد دودموره من أبشة من قبل القوات الفرنسية[1] لجأ إلى إقليم أندي في المناطق الخاضعة لسيطرة الدور المكوّن من البدو الرحل أنصار السنوسية، ولكنه انتظر عبثا التدخل العسكري من قبل السنوسية لصالحه، التي كانت مشغولة في الدفاع عن إقليم بوركو، وفي واقع الأمر فإنّ السنوسية لم يكن لديها الوسائل والرغبة في مساعدة دودموره ونصرته.

السلطان دودموره كان يأمل في استضافته في المنفى، لكنها لم تبذل أي جهد لإعادة تثبيته[2]، فالسنوسية منذ نشأتها لا تحبذ هذا النوع من الإجراءات، وكانت تفضل الاعتراف بالسلطات القائمة أيّاً كانت، فمثلا كانت هناك محاولات بهذا المعنى؛ للاتفاق مع الفرنسيين على تقسيم الأراضي[3].

هكذا خلال نصف قرن (1860–1910) كانت العلاقات بين السنوسية وسلاطين ودَاي مستمرة ومربحة، ولكن تميزت بعدد من التحفظات وسوء الفهم، وكانت ودَاي تمثل مصدر إمداد السنوسية بالسلع والتموين خلال فترة توسعهم وحكمهم للصحراء الكبرى، ولكنها كانت –أيضاً– عقبة لا يمكن تجاوزها أمام تغلغل تعاليم السنوسية، ولما كانت السنوسية ملتزمة بمبادئها بالتعاون

1 سقطت أبشة في يد القوات الفرنسية في 2 يونيو 1909.

2 تحدث ديجان في تقرير مفصل عن تبادل المراسلات بين السيد أحمد الشريف الإمام الثالث للسنوسية بعد موت عمه السيد محمّد المهدي 1902، و دودموره في نهاية عام 1909. انظر مقال: الإسلام و المجتمع، (رقم 6، 1992، ص 88–132) أمّا بخصوص زاويا إقليم بركو فقد كانوا يخشون انتقام فرنسا، ولذلك لم يقدم أي دعم يذكر للسلطان دودموره ، في حين أن أحمد الشريف كان يقدم في مقترحات متناقضة. دودموره ترك وحيدا، استسلم في نهاية المطاف للفرنسيين في أكتوبر 1911. ذكر مختار بشير مختار، وفقا لمقابلة مع الفقيه أبو جويري، المستشار القانوني لمحكمة ودَاي وإقليم أندي وقبائل العرب المحاميد، أن عرب عراضة قد أرسلوا تعزيزات إلى دودموره خلال عامي 1908–1909، ولكنها كانت محدودة، (المرجع السابق، ص 150)

3 كانت الإدارة السنوسية تتوقع الكثير، على وجه الخصوص، من محاولة التفاوض التي قام بصياغتها مبعوث فرنسي غير رسمي، بونيلديميزيريس، الذي ستتخلى السلطات الفرنسية عنه بعد ذلك. جاء إلى القاهرة في عام 1911، بونيلديميزيريس، الذي استفاد أيضا من جهاز الاستخبارات البريطاني في مصر، قد اقترح في رسالة إلى إمام السنوسية السيد أحمد الشريف أن الحدود الفعلية بين الفرنسيين والسنوسيين يمكن وضعها في عراضة ،أقل من 200 كم شمال أبشة. وتأمل السيد أحمد الشريف كثيرا في هذا الاقتراح. للمزيد بهذا الخصوص انظر : voir notre thèse, Les relations, t. III, p. 1127-1175 : « Une tentative de négociation avortée : l'affaire Bonnel de Mézières ». La documentation principale se trouve aux Archives d'outre-mer, Aix-en-Provence, SOM Affaires politiques 1054 (1).

مع السلطان، فإنها لم تسع إلى زعزعة استقرار السلطة التي كانت –بغض النظر عن عدد من جماعات الطوراق المتحالفة معها– شريكاً رئيسياً، وإنْ لم تكن فريداً في جنوب الصحراء الكبرى.

إنَّ التهم –التآمر والتخريب– الموسومة بعمل السنوسية في ودَاي ساهم في تحويل التحليل إلى تفسيرات جدلية، بدلاً من وضعها في مجال العلاقات الدولية التي تشكل منطقها الإطار " الطبيعي".

بعد سنوات قليلة من الهجوم الإيطالي على طرابلس وبرقة "1911" أصبحت السنوسية حاكمة –بحكم الأمر الواقع– على جزء من مجالها الصحراوي، فاعلاً محدداً، بشكل مستقل في قارة كان فيها التقسيم الاستعماري شبه كامل، وحدد دورها ووجودها في ودَاي، وليس في شكل ضربات على الساحة المحلية، ولكن في ضوء المصالح السياسية والاقتصادية الأوسع.

وفي هذا الصدد فالعلاقة بين السنوسية وسلطنة ودَاي تشكلت منذ ما يقرب من نصف قرن؛ من أجل الأخوة، واحدة من المعايير الأولى والرئيسية لهذا العمل، الذي لم يعد ينحصر في الدعوة والمسائل الدينية، ولكن أخذ بعين الاعتبار مصالح الدولة، والتفاوض معهم.

لقد حدثت طفرة في الطريقة السنوسية – التي كانت تحديا منذ نشأتها– فيما يتعلق بالسلطة والسياسية، فانتقلت إلى منظمة أقرب إلى الدولة، التي كان من المقرر أن تجري في الإطار الليبي، وخاصة بعد الغزو الفرنسي لودَاي؛ لتستفيد من خبرتها في تشاد، وخاصة ودَاي.

مرة أخرى نقول إنَّ من الواجب فتحَ صفحةٍ جديدةٍ من الذاكرة والتاريخ، وهو جهدٌ ضروريٌّ؛ لاستعادة كل التعقيدات في هذه الصفحة المنسية في المسيرة الطويلة للسنوسية في الصحراء.